القنفذ

سيرة حياة طويلة جدًا

إسلام أبو شكير



القنفذ

رقم الايداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
35973172/9

أبوشكير، إسلام
القنفذ- إسلام أبوشكير– عمان: دار فضاءات، 2013

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9957-30-514-7



الطبعة الأولى: 2013 تشرين أول

دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaa.com
البريد الأبكتروني للمؤلف: shkair@gmail.com

تصميم الغلاف: نضال جمهور
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إسلام أبو شكير

القنفذ

(سيرة حياة طويلة جداً)



ـ ميت آخر.. وعليّ أن أستكمل حياته أيضاً..

(1)

لا شكّ أنّ الوالدة كانت أشدّنا حزناً. لكنّها لم تكن الأضعف. عيناها كانتا حمراوين. متورّمتين تقريباً. وكانتا مع ذلك ثابتتين. لم ألحظ أيّ زيغٍ في نظراتها. صوتها كان هو الآخر شاحباً. لكنّ الكلمات ظلّت تخرج من فمها واضحةً، وباسترسالٍ وترابطٍ يدلاّن على أنّها تعرف جيّداً ما يجب أن تفعله.

ـ مصيرنا جميعاً مرهون بهذه اللحظات. أيّ خطأ معناه أنّ الكارثة ستقع..

بدا على أحدنا أنّه يريد أن يقول شيئاً، لكنّ الوالدة قطعت الطريق عليه بإشارةٍ من يدها..

ـ اسمعني.. اسمعوني جميعاً.. لا ثقة لنا بأيّ إنسان.. الجميع، وبلا استثناء، متآمرون.. هذا ما يجب أن نضعه في الحسبان، ونتصرّف بناءً عليه، إلى أن نخرج من المأزق في سلام..

وأضافت:

ـ ومن الضروريّ طبعاً أن يُبقي كلٌّ منّا هذا الأمر بينه وبين نفسه.. أمّا معهم فُنتصرّف بهدوء.. نشعرهم بأنّنا نعتمد عليهم في كلّ شيء لترتيب الأمر.

تحدّث الجميع باستثنائي. عبارة واحدة قلتها في بداية الجلسة بعد أن قبّلتُ رأس الوالدة، وأخذت بخاطرها، ثمّ صمتّ:

ـ أنا لا دور لي في أيّ شيء.. أنا لست مستعدّاً للتفكير.. أو لست قادراً على التفكير.. رتّبوا الأمور أنتم رجاءً..

لم يبدُ على الوالدة أنّها استاءت من كلماتي.. على العكس كان ردّها مشجّعاً جدّاً:

ـ لا تشغل بالك.. لا أحد سيطلب منك شيئاً.. أصلاً دورك لم يحنْ بعد..

صمتتْ قليلاً. ثمّ تابعتْ:

ـ المهمّ ألاّ نبالغ في القلق..

***

لكنّي كنتُ قلقاً. أو في حالةٍ أبشع من القلق. لا أدري أيّ اسمٍ يطلق عادةً على الحالة التي تصبح فيها الأشياء أمام الإنسان أشبه بالشياطين. كان كلّ شيء يتحرّك أمامي كموجة نار لا تستقرّ أبداً ولا تهدأ. البشر أمامي كائنات متشابهة. لم أكن أميّز بينهم. بدوا لي نسخاً لأصلٍ واحد. ولوهلةٍ خيّل إليّ أنّ هذا الأصل هو الوالد. رأيته في وجوههم جميعاً. رأيته ضاحكاً في البداية. ثمّ خائفاً. وحزيناً.

لم أحتمل الموقف. خرجتُ من الصالة، متّجهاً إلى غرفتي. أغمضت عينيّ وصرخت:

ـ أم ياسر.. أحضري لي فنجان قهوة..

ـ حاضر..

وأضافت:

ـ ما رأيك بكأس ليمون بدلاً من القهوة؟..

أم ياسر هي الوحيدة التي لا أذكر أنّني رفعتُ صوتي في وجهها أبداً.. عشتُ معها أطول ممّا عشت مع الوالدة.. ولا أدري.. لعلّي أحبّها أكثر من الوالدة.. يراودني هذا الإحساس على الدوام، لكنّني كنت حريصاً على

تجاهله.. ربّما كنت أخشى أن يكتشفه أحدهم (الوالدة خصوصاً). أفكّر الآن:

ـ وماذا في ذلك؟..

لكنّني لا أجد جواباً..

التاريخ الدافئ والحميم لعلاقتي بأم ياسر لم يشفع لها في هذه اللحظة، فقد جاءها الردّ سريعاً:

ـ أنت إنسانة تافهة وقليلة أدب.. قهوة يعني قهوة..

لم أعرف أيّ ملامح ارتسمت على وجهها، فقد كنت أنظر إلى الفراغ. أمواج اللهب حالت بيني وبين رؤية وجهها. سمعتُ فقط صوت خطواتها وهي تخرج.

أظنّ أنّها كانت تركض..

***

لم يكن للقهوة طعم. كانت مُرّةً فقط. القهوة ليست مشروبي المفضّل. والحقيقة أنّه لم يكن لديّ في يومٍ من الأيّام مشروب مفضّل. يتوقّف الأمر غالباً على المناسبة. شربت القهوة والشاي والكابيتشينو والكولا والبيرة والفودكا. أشياء كثيرة لا أذكر أسماءها. لكنّ ذلك يحدث غالباً بدافع

المجاملة. لم يعجبني منها شيء على الإطلاق. حتّى القهوة التي طلبتها قبل قليل. لم أطلبها إلاّ لأنّها أوّل ما خطر في ذهني. ولعلّ أم ياسر كانت على حقّ. فأنا أحوج ما أكون الآن إلى ما يهدّئ من أعصابي، لا إلى ما يثيرها.

لكنّها أخطأت مع ذلك.

كان عليها ألاّ تسألني. كان عليها أن تتجاهل طلبي بصمت، وتحضر ما تشاء. ليمون. شاي. سمّ... أيّ شيء.. وكنت سأتقبّله منها، شريطة ألاّ تتكلم.. ما كنت لأعترض.. هي تعرف ذلك جيّداً.. المشكلة في هذه اللحظة أنّني لم أكن أطيق أن أسمع صوتاً. تكفيني هذه الشياطين التي تزعق داخل جمجمتي..

***

لم أكمل قهوتي اللعينة. الوالدة اقتحمت غرفتي. وعندما أبصرت الفنجان حملته إلى الحمّام، وعادت. لا أعرف ماذا صنعتْ به. بدا عليها أنّها غاضبة، لكنّها متماسكة..

ـ اسمع.. أنا أعلم أنّ الأمر تمّ بأبكر ممّا كنّا نتوقّع.. الرئيس لم يعد موجوداً. هذا أمر سيِّئ.. وهنالك أشياء لم ننجزها. كنّا بحاجةٍ إلى وقتٍ أطول بكثير.. إلى خمس سنوات أو ستٍّ على الأقلّ.. لكنّ الموت ليس

مؤامرةً لنحبطها، ونلقي بمن كان وراءها في السجن.. وهذا أمر سيّئ آخر.. ومع ذلك فثمّة أمور جيّدة.. أهمّها أنت.. الحكاية تحدّثنا فيها مطوّلاً، وكان من الممكن أن نجد لها نهايةً ترضيك.. لكن.. كما ترى.. القدر قال كلمته، والخيار لم يعد لك، ولا لي، ولا لأحدٍ على الإطلاق..

ـ طيّب.. لكنّني لا أستطيع أن أفعل شيئاً..

ـ لا تفعل شيئاً.. ولا تقل شيئاً.. ولا تتدخّل في شيء.. نحن سنتصرّف..

نهضت من مقعدها، واقتربت منّي.. فاجأتني بهذه الحركة التي لم تبدر منها منذ زمنٍ طويل.. وضعتْ كفّيها على جانبي وجهي، ثمّ رفعتْ رأسي.

ـ حبيبي.. انظر إليّ..

كانت على وشك البكاء. دمعتان عالقتان في زاويتي عينيها. أيّ قوّة هذه التي تستعين بها لمنع هاتين الدمعتين من السقوط؟ خيّل إليّ أنّها قوّة تكفي لزحزحة جبلٍ من مكانه..

ـ صدّقني.. سيأتي يوم، وستشكرني على هذا الذي أفعله.. أنا مثلك.. كنت أريد لحياتك أن تسير في اتّجاهٍ آخر.. في الاتّجاه الذي تحبّه.. لكن حتّى

هذا الاتّجاه الذي فرض نفسه علينا لن يكون سيّئاً.. هو صعب قليلاً.. لكنّك ستعتاد عليه.. وستجده ممتعاً أيضاً.. صدّقني..

عن أيّ اتّجاهات تتحدّث؟.. وما هذا الاتّجاه الذي أحبّه؟.. أو لا أحبّه؟.. يا إلهي!!.. هم لا يفهمون.. أغبياء.. أغبياء..

***

اللعنة.. يرغمونني على التفوّه بأشياء لا أحبّها. الوالدة ليست غبيّةً بالتأكيد. كلّ ما في الأمر أنّها بعيدة عنّي. وهذا ما يجعل التواصل بيننا صعباً.. أنا أقدّر ما تريد. وهي تقدّر ما أريد. لكنّ المسافة بين ما أريد أنا وما تريد هي، شاسعة جداً. والعثور في هذا الوقت على نقطةٍ تتوسّط المسافة بيننا مستحيل تماماً. لذلك لا بدّ لأحدنا من أن يغادر موقعه ليلتحق بالآخر.

هذه هي المسألة ببساطة.

الوالدة تبدو لي الآن مختلفةً تماماً. خلال أقلّ من ساعة تحوّلت إلى شخصٍ آخر. تتكلّم كثيراً. تتحرّك كثيراً. صوتها أعلى من المعتاد. ملامح وجهها تتبدّل في الدقيقة الواحدة عشرات المرّات. لا شكّ أنّها مزدحمة من الداخل.

أتساءل بيني وبين نفسي:

ـ كيف حدث هذا؟..

تتصرّف كما لو أنّها تدرّبت على الموقف طويلاً. تؤدّي دورها في كثيرٍ من الإتقان. كما لو أنّها عاشته من قبل. هي تعليمات الوالد بلا شكّ. هذه طريقته في التحسّب لكلّ شيء. ما كان له أن يترك مثل هذا الاحتمال دون أن يتّخذ له ما ينبغي من الاحتياطات.

حسناً.. كلّ ذلك لا يعنيني.. أفكّر الآن فيما يجب عليّ أنا فعله.

يا للمفارقة!!.. أنا الأضعف بينهم. وهم يستقتلون ليجعلوا منّي الأقوى.. محمومون. يلهثون. نظراتهم تنمّ عن توتّر. يحرثون بأفكارهم الزمن من أقصاه إلى أقصاه.. الماضي. والحاضر. والمستقبل.. الماضي الذي ينبغي أن يستمرّ. والحاضر الذي ينبغي أن يتجاوزوه بأسرع ما يمكن. والمستقبل الذي لا بدّ أن تكون قياساته مضبوطةً تماماً. لا يجوز أن يكون ضيّقاً أكثر من اللازم. ولا فضفاضاً أكثر من اللازم. ولا طويلاً. ولا قصيراً. مستقبل على المقاس تماماً، وبالطراز الذي فصّله لهم الوالد..

***

عدتُ مع الوالدة إلى الصالة مرّةً أخرى. فنجان قهوة في يد ماهر. في يده، ولم ينتزعه منه أحد، ليرمي به في الحمّام. لا غرابة. كان يرتشف منه بطريقةٍ تدلّ على أنّه مستمتعٌ تماماً. ماهر يصغرني بعامين. لكنّه سبقني إلى عالم الرجولة. بل سبق سنّه. أنا لم أكترث بالأمر. لم يكن يعنيني على الإطلاق أن أدخل هذا العالم في موعدٍ محدّد. بإمكانهم أن يعتبروني طفلاً، أو مراهقاً، أو معتوهاً حتّى. بإمكانهم ألاّ يروني أصلاً. ما كان ذلك ليقلقني، أو يسبّب لي أدنى قدرٍ من الضيق. ولو أردت أن أكون صادقاً ودقيقاً وواقعيّاً لقلت إنّ هذا ما يريحني بالضبط.. ألاّ يراني أحد..

أنا أنا.

فتاة بريطانيّة قالت لي ذات مرّة:

ـ أنت لا تقبّل جيّداً..

وببساطة صدمتْها أجبت:

ـ أنت أوّل امرأةٍ أقبّلها في حياتي..

نظرت إليّ مذهولة.. ثمّ قالت بصوتٍ كالبكاء:

ـ طفلي الصغير..

لم أفهم لِمَ كان عليها أن تشعر بكلّ هذه الشفقة نحوي. أعرف كثيرين أصغر سنّاً منّي سبقوني إلى ما هو أكثر من القبلة. لم أكن أحبّ ذلك فيهم.. أو ربّما أحببتُه.. واشتهيتُه.. غير أنّ حاجزاً من الخوف حال بيني وبينه. لا أعني الخوف بمعناه الحرفيّ. أعني شيئاً يشبهه. لا يخطر في ذهني اسمٌ معيّن له. وقد لا يكون له اسمٌ في الأصل..

***

الغريب أنّه ما من شيءٍ في حياتي حدث في الوقت المناسب. لا أستثني من ذلك ـ بل أضع على رأس ذلك ـ ولادتي نفسها. لقد تأخّرتْ عمّا هو مطلوب. لو أنّني سبقتُ باسلاً إلى الحياة، لكنتُ الآن أسعد بكثير.

باسل كان الأخ الأكبر. ومن الطبيعيّ أن تتّجه الأنظار إليه باعتباره الخليفة الذي سيتمّ إعداده جيّداً. لن أتحدّث طويلاً في الأمر، إذ لا جدوى من ذلك الآن. أريد أن أقول إنّ اتّجاه الأنظار إلى باسل وضعني في الظلّ. ولم يضايقني ذلك. أقولها بصدق. أعتقد أنّني خلقت لأكون كذلك. وفي مطلق الصراحة: هذا هو الوضع الطبيعيّ الذي يناسبني أكثر من سواه.

ما ضايقني هو اتّجاه الأنظار إليّ فيما بعد فجأة. وفاة باسل حرفتها (وعلى نحوٍ مباغتٍ وصاعق) نحوي. وضعٌ جديد لم أعتده. لا بأس.

كنت سأتقبّل أن أكون محطّ أنظار الآخرين لو أنّ ذلك كان منذ البداية. لا.. ليس بعد أن اعتدتُ حياة الظلّ. وتأقلمتُ معها. وأحببتها.. كنتُ كمن أمضى يوماً كاملاً في غرفةٍ شديدة الإعتام، ثمّ.. خرج إلى النور فجأة..

تماماً.. تماماً..

موت باسل كان موتاً لي في الحقيقة.

عندما مات أخذني معه، وترك شخصاً آخر يشبهني في الشكل فقط. كان عليّ أن أكونه. أن أتخلّى عن حياتي السابقة كلّها، لأستكمل حياته هو.. حياته التي توقّفت لسببٍ لا علاقة لي به، ولا أتحمّل مسؤوليّته.

أعادوني من بريطانيا..

كنتُ قد شعرت أنّني وصلت إلى الوقت المناسب لتبادل القبل مع النساء.. بل بدأت أتقن ذلك، وأمارسه في كثيرٍ من البراعة، والنهم.. لنقل إنّني أصبحت محترفاً في التقبيل. وكنت أستعدّ لدخول المرحلة التالية. غير أنّ شيئاً من ذلك لم يحدث.. قطع باسل مشواري عليّ، فاضطررت إلى

العودة لأكمل دوره في المسرحيّة التي لا يعرف سوى الشيطان من ألّفها، ومن يقوم بإدارتها..

وهكذا، فالميت بالفعل هو أنا. والحيّ بالفعل هو باسل ـ الأخ الأكبر الذي فاضت روحه في حادث سيّارة، ثمّ أبت أن تغيب في السماء، فاستولت عليّ، بعد أن طردت روحي منّي..

والآن..

ثمّة ميتٌ آخر.. ويبدو أنّ عليّ أن أستكمل حياته أيضاً..

من الميت؟..

أهو الوالد؟..

أم أنا.. مجدّداً؟..

ـ هذا كائنٌ يموت أيها الأبله.. بإمكانك أن تنقذه..

(2)

كنّا في الصالة أربعةً فقط. الأمّ وأبناؤها. استقبلْنا عدداً محدوداً من الأشخاص. كانوا يدخلون، ثمّ يخرجون مسرعين. الوالدة كانت الأكثر حضوراً، وتأثيراً. الجميع كانوا يتحدّثون إليها أوّلاً. ثمّ ينتقلون إليّ. لكنّني لم أكن متحمّساً في التعاطي معهم. ردودي مقتضبة وسريعة. وعندما يقتضي الأمر توجيهاً أو إيعازاً أحيلهم إلى الوالدة، وأحياناً إلى ماهر.

كنت أعلم أنّ الخبر لم يتجاوز حدود الصالة إطلاقاً. بضعة أشخاص في الخارج (لا يتجاوز عددهم الخمسة أو الستّة) هم الذين أُبلِغوا بما حدث. وهؤلاء أُسندت إليهم مهمّاتٌ دقيقة عليهم أن ينجزوها، تمهيداً لإعلان حالة الوفاة رسميّاً..

كلّ هذه الأجواء لم تكن تعنيني. معظم الأحاديث كانت تجري همساً، وهذا ما ساعدني على أن أبقى بعيداً إلى حدّ ما. من الواضح أنّهم لم يكونوا مشغولين بما حدث، بل بما سيحدث، وما يمكن أن يحدث.. لم يكن شبح الموت هو المخيّم عليهم. إنّه شبح الخوف. كانوا يخوضون معركةً مع المجهول.

هي معركتهم. أمّا أنا فليست لي معركةٌ على الإطلاق. ما أودّه فعلاً أن أفتح عينيّ، لأكتشف أنّني وحيد. لا أحد يشاركني الحياة على سطح هذا الكوكب، كي لا أضطرّ إلى التعاطي معه إطلاقاً. وجود أكثر من شخص واحدٍ في أيّ مكان يعني أنّ خلافاً ما سيقع حتماً، وأنّ حرباً ستنشب.

(هاجر) حسناء تركيّة تعرّفتُ إليها في بريطانيا، وبقيتُ على تواصل معها حتّى بعد عودتي. كتبتْ لي مرّة:

ـ أقترح عليك أن تتزوّجني. قل لوالدك الرئيس أن يخطبني من (سليمان ديميريل)..

وكان جوابي عليها:

ـ لا أريد لبلادي وبلادك أن يعيشا أهوال حرب تشبه حربنا مع الإسرائيليين..

حتّى الزواج أنظر إليه على أنّه ميدان للحرب، لأنّه يعني اجتماع اثنين.

السلام الحقيقيّ أن تعيش منفرداً، أو أن يخضع أحد الطرفين إلى الآخر، وهو احتمالٌ ليس مضموناً على الدوام.

***

ولكنْ.. هل لما أريد وما لا أريد أيّ معنى أو قيمة في هذه اللحظات؟..

سبق لي أن أردت أشياء كثيرة. وثمّة أشياء أخرى كثيرة أيضاً لم أردها. ولكن ما حصيلة ذلك كلّه؟..

الحصيلة هي أنا.. الرجل الذي سكنته عشرات الأرواح. سكنته بأكمله، إلى درجة أنّه لم يعد لروحه هو موطئ قدم..

الحصيلة هي درّاجة هوائيّة مرميّة في أحد مخازن القصر. الدراجة الهوائيّة التي أحبّها.. الأرواح التي تسكنني ترى أنّ ركوب درّاجةٍ والسير بها في شوارع دمشق لا يليقان برئيسٍ محترم..

الحصيلة هي علاقات نسائيّة توقّفت عند حدود تبادل القبل. كنتُ على وشك بدء مرحلةٍ جديدةٍ أعالج فيها جسدي المريض بالشهوة.

الحصيلة أيضاً عدّة بنطلونات جينز تبرّعتُ بها للحرس، بعد أن لم يعد لها مكان في خزانتي التي امتلأت فجأةً بعشرات البدلات الرسميّة ذات الألوان المعتمة.

الحصيلة أيضاً وأيضاً لثغة بسيطة كانت تعجب الوالدة في طفولتي، ثمّ تحوّلت دون سببٍ واضحٍ إلى عارٍ ينبغي غسله بأيّ ثمن..

الحصيلة: لا أحد.. لا شيء.. كائن غريب لا أعرفه، ولا أفهمه، ولا سلطة لي عليه..

***

أعود إلى الوالدة. الوالدة لم ترتدِ بعدُ ملابس الحداد. لا شكّ أنّ ذلك جاء لأسبابٍ أمنيّة. الجميع هنا حريص على أن تظلّ دائرة العارفين بما حدث ضيّقةً إلى أقصى الحدود. بوّابات القصر أُغلقت، ولم يعد الدخول أو الخروج مسموحاً إلاّ لعددٍ محدود جدّاً من الأشخاص. الاتّصالات قُطعت أيضاً، باستثناء نقطةٍ واحدة ظلّت متاحةً للعائلة، أو المقرّبين منها.

التلفزيون يبثّ أغنيةً لسميرة توفيق. الصوت كان مكتوماً. تملّكتني الرغبة في أن أرفع الصوت.

التقيتُ بسميرة توفيق في بيروت قبل عدّة سنوات. كانت شيئاً آخر مختلفاً كلّياً عن هذه التي تغنّي الآن. سيّدة عجوز مريضة بالكاد يخرج الصوت من حنجرتها. تبادلنا بضع كلمات. سألتني:

ـ بم أناديك؟.. أستاذ.. سيّد.. مسيو.. بيك..؟

كنتُ حينها نفسي. لم يكن ثمّة روحٌ ميتة تحتلّني، لذلك كنتُ صادقاً عندما أجبتها:

ـ باسمي.. فقط..

الآن لا أحد يجرؤ على توجيه مثل هذا السؤال إليّ. هم يعرفون تماماً بم يجب أن يخاطبوني.. لا أعرف بالضبط من الذي وجّههم إلى ذلك. ولم أتحرّ عنه. المهمّ أنّني كنت مرتاحاً. هنالك قضايا لا مفرّ منها، وعليّ أن أعوّد نفسي عليها، دون أن أرهقها في البحث عن الأسباب أو الظروف أو الدواعي. والجيّد في الموضوع أنّ ثمّة جهات تعرف ماذا يجب أن تصنع.

لا يهمّ..

أعود إلى الوالدة مرّةً أخرى.

قبل قليل كانت تحمل ورقة، وتملي ما فيها على أحدهم عبر الهاتف. سمعتُها تردّد أسماء كلّ من ماهر، وأبو جمال نائب الرئيس الذي سيصبح بعد ساعات رئيساً مؤقّتاً، واسم وزير الدفاع، ورئيس المخابرات، ورئيس مجلس الشعب.. ثمّ أعطت الهاتف لماهر. لم يقل شيئاً. كان ينصت فقط، ثمّ أغلق السّماعة وخرج.

اقتربتْ منّي.. وقالت:

ـ الكلب رفعت..

لم تضف شيئاً.. وأنا لم أسأل..

***

الوالدة تكره الرجل على نحوٍ لا يمكن تصوّره. يخيّل لي أحياناً أنّها خُلقت لتكرهه. لم تكن الوحيدة في العائلة طبعاً ممّن يحمل هذا الشعور. لكنّها كانت متطرّفةً في ذلك.

أنا أيضاً أكرهه. لكنّني كثيراً ما ضبطتُ نفسي متلبّسةً بمشاعر أخرى تجاهه. هنالك على الأقلّ شيء واحد في شخصه يعجبني. حبّه لذاته. استماتته في الدفاع عمّا يظنّه حقّاً له. هو كآخرين ممّن أخرجهم الوالد عن مسارات حيواتهم. صنع لهم مصائر أخرى لم تكن متوقّعة. لكنّه كان

الوحيد بينهم ممّن لا يزال يؤمن بأنّ الفرصة لم تضع. كان لديه يقينٌ بأنّ حياته ستعود إلى مسارها الأوّل. يؤمن بذلك، ويعيش من أجله.. يعجبني هذا الصنف من الرجال، رغم أنّه خطر جدّاً، ومن الضروريّ التزام الحذر في التعامل معه.

أن يكون لك مسارٌ في الحياة، وتنجح في الالتزام به، فتلك حالةٌ مدهشة.. ولكن عندما تخرجك قوّةٌ ما عن هذا المسار، ثمّ تنجح في العودة إليه فتلك بطولة..

رفعت بهذا المعنى ليس بطلاً خالصاً، لأنّه لم يعد بعدُ إلى مساره. لنقل إنّه مشروع بطل، أو هو يسعى إلى أن يكون بطلاً، رغم أنّ الفرصة أمامه ليست كبيرة.

الجميع هنا مؤمنٌ بهذا الجانب في شخصيّته، لذلك لا يتوقّفون على الإطلاق عن التفكير به. الوالد نفسه كان مؤرّقاً برفعت، وببطولة رفعت. قال لي ذلك بطريقةٍ ما ذات مرّة:

ـ لا تبالِ بالإسرائيليين.. رفعت أخطر عليك بكثير..

لا أدري لم استعمل حينها كاف الخطاب. لم يقل: أخطر علينا.. كان يعنيني (أنا) إذاً.. يعنيني بشكل شخصيّ.. ربّما كان يشعر أنّني أفتقد إلى

هذه البطولة التي تميّز رفعت، وبالتالي هو يخشى عليّ منه.. حسناً.. سأكون (بطلاً) هذه المرّة فقط، وسأعترف بأنّ الوالد كان محقّاً.

البطولة فكرةٌ يصعب الاتّفاق على مضمونها. ما أؤمن به شخصيّاً أنّ الحياة تخلو من الأبطال. ثمّة مواقف بطوليّة فقط. وعموماً فإنّ النظر إلى شخصٍ ما على أنّه موضع إعجابٍ بكلّ ما فيه هو خطأ كبير. الأفضل أن نعجب بجوانب معيّنةٍ فيه، دون أن نسحب هذا الإعجاب على مجمل الشخص. كذلك الأمر عندما نريد أن نحبّه. من الخطأ أن نستغرق في حبّه. يجب أن نُبقي على هامشٍ يتيح لنا أن نكرهه عند الضرورة.

سأربط وجهة نظري هذه بما يدور حولي في هذه اللحظات.

الوالدة كانت محقّة. ما من أحدٍ يمكن الثقة فيه. لا أردّد هنا كلامها على نحوٍ أعمى. كلامها له صلةٌ بخوفها ممّا يمكن أن يحدث. لكنّها في الأصل طيّبةٌ جدّاً. فيها الكثير من طبائع النساء الريفيّات. هي أمّ أكثر منها سيّدة أولى.. سيّدة أولى سابقة للأسف.

على أيّ حال، فانعدام ثقتي بهؤلاء أكثر تجذّراً وعمقاً ممّا هو لدى الوالدة. هذا إذا استثنينا موقفها الحادّ من رفعت بالطبع. هم يضحّون بكلّ

شيء من أجل مصالحهم. أنا أدرك هذا فيهم أكثر من الوالدة. أقرب مثال هو باسل أوّلاً، وأنا فيما بعد.

شجّعوا رغبة الوالد في أن تحافظ سياسته على امتداداتها حتّى بعد رحيله. كانوا يعرفون أنّ عينه على باسل. باسل الذي لم يعد مجرّد ابنٍ له. شرّبه روحه وعقله حتّى أصبح نسخةً طبق الأصل عنه.

ولم يعترضوا. لا خوفاً فقط، بل يقيناً منهم بأنّ مصالحهم لن تتعرّض لأيّ خطر.

لم يكن لأيّ منهم طموحٌ في أن يكون زعيماً. يعلمون جيّداً أنهم لم يُخلقوا ليكونوا زعماء. والوالد اختارهم أصلاً ليكونوا إلى جانبه لأنّه يعرف ذلك فيهم.

أقصى ما كانوا يتطلّعون إليه ألاّ يفقدوا مواقعهم التي منحهم إيّاها الوالد. سايروه إلى النهاية في اعتقاده بأنّ باسلاً هو الخيار الوحيد المتاح لاستمرار هذه السياسة التي وصفوها بأنّها الأصلح لاستقرار البلد، وكانوا يعنون استقرار مصالحهم هم.

المشكلة بدأت بعد رحيل باسل.

عندما مات باسل اتّضح (هكذا.. فجأةً.. ودون سابق إنذار) أنّ ثمّة خياراً آخر لم يكن أحد يراه، أو يكترث به. إنّه أنا. الشخصيّة الاستثنائيّة في الزمن الصعب. القوّة. والذكاء. والثقافة. والتواضع. والانفتاح. والمستقبل. وهذا الهراء كلّه..

لم أسألهم لماذا لم ير أيّ منهم فيّ شيئاً من هذا قبل ذلك.. لم يكن بوسعي أن أسأل أصلاً..

الوالد.. لا أبرّئه إطلاقاً. أحمّله مسؤوليّة اختطافي. والآخرون متواطئون. كانوا يتوقّعون مثل هذا اليوم، لذلك فضّلوا أن يعدّوا له مبكّراً. جاؤوا بي لأكون الضامن لمصالحهم في المستقبل. أنانية لا غير..

الوالدة جزءٌ من اللعبة أيضاً. جزءٌ مهمّ ومؤثّر. لكنّها لم تمارس هذا الدور حبّاً بالسلطة، بل حبّاً لأبنائها، وخوفاً عليهم. كانت تقول:

ـ رفعت لن يرحمكم..

ربّما كانت محقّة، ولكن إلى حدّ معيّن فقط.. هي لا تستشعر الخطر في غير رفعت.. الأغلب أنّ أم ياسر كانت أبعد منها نظراً، فهي صاحبة القول المأثور الذي لا يقصر انعدام الثقة على رفعت وحده:

ـ أولاد الحرام في كلّ مكان..

وسأضيف:

ـ ... وفي كلّ زمان..

***

أم ياسر ملهمتي الحقيقيّة في هذه الحياة. شخصيّتها صورةٌ مصغّرة للعالم كما عشتُه. أحرص على التقرّب منها لأنّني أجد لديها إجاباتٍ على كلّ الأسئلة التي تخطر في ذهني. بالنسبة لي هي ليست خادمةً، ولا مربّيةً، ولا مدبّرة منزل، ولا أمّاً بديلة.. هي صلة الوصل بيني (أنا المحشورٌ وسط خليطٍ مرعبٍ من الأحلام والأوهام)، وبين الحياة بوقائعها وأحداثها..

كنت أنزل إلى الشارع كثيراً، وأرى أناساً، وأتبادل الحديث معهم، لكنّني لا أشعر أنّني جزء منهم. والمصيبة أنّهم هم أيضاً لا يساعدونني على ذلك. يحرصون دائماً على أن تبقى مسافةٌ ما بيننا. فأضطرّ عندئذٍ إلى العودة إلى أم ياسر.

في طفولتي سألتُها مرّة عن معنى كلمة مجنون.. قالت لي:

ـ هو الفاقد لعقله.. ألم تر مجنوناً في حياتك؟..

ـ أبداً..

في اليوم التالي رافقتني في زيارةٍ إلى مشفى ابن سينا للأمراض العقليّة. لا أدري كيف أقنعت الوالدة. المهمّ أنّني رأيت المجانين هناك. أصرّت أم ياسر أن يتمّ ذلك عن بعدٍ فقط. لم تسمح لي أن أقترب منهم، أو أتبادل معهم أيّ نوعٍ من الأحاديث. ومع ذلك فقد استطعتُ أن أكوّن عنهم فكرةً ما.

لم يكونوا مختلفين عن بقيّة البشر ممّن أعرفهم. بعضهم فقط كان ممزّق الثياب. وثمّة واحد كان مبتسماً على الدوام. عرفت عندئذٍ أنّ إياداً زميلي في المدرسة كان جاهلاً عندما اختار كلمة مجنون ليشتمني بها. تختلف كثيراً عن كلمة (أبله) التي أسمعها على لسان الوالد، وباسل، كلّما ارتكبتُ خطأً. كلمة (مجنون) ليست شتيمة، وفقدان العقل لا يعني أكثر من أن يمزّق الشخص ثيابه، أو أن يبتسم على الدوام.

بالنسبة لي، فثيابي نظيفةٌ تماماً، ومكويّة، وأنيقة.. تبقى الابتسامة. ربّما كانت الابتسامة التي ترتسم على فمي دائماً هي التي أوهمته بجنوني.. ومع ذلك، لم أتوقّف عن الابتسام.

أتيح لي فيما بعد أن أطوّر فكرتي عن الجنون. في التلفزيون رأيت نماذج لمجانين أقرب إلى الحكماء. يتحدّثون عن أشياء غالباً ما يسخر منها

الآخرون. ثمّ يثبت فيما بعد أنّها صحيحة، وكان ينبغي أن تؤخذ على محمل الجدّ.

لقد اكتشفتُ إذاً سبباً إضافيّاً جعل إياداً يصفني بالجنون. لا شك أنّه فعل ذلك لأنّني قلت له:

ـ أبي يختلف عن أبيك.. أبي لن يموت.. ألا تسمع ما يقال عنه في التلفزيون؟..

طبعاً كنت كسائر الأطفال الذين لم يتجاوزوا السابعة أو الثامنة من أعمارهم، يعتقدون ـ وبصدق ـ أنّ آباءهم أقوى من الموت. غير أنّ ثقتي بخلود الوالد كانت مختلفةً قليلاً، لأنّها معزّزةٌ بتلفزيون وإذاعة لا يكفّان عن بثّ الأغاني التي تصرّ على أنّه لن يموت.

حسناً.. إياد لم يقتنع بما قلت. هو لم يعش فكرة خلود الآباء، ولم يقتنع بها. بل لديه الدليل على بطلانها. دليله واضحٌ وبسيط: أبوه كان ميتاً بالفعل، وقبل أن يولد هو..

***

والآن..

الوالد فارق الحياة. لا يهمّني ما سيصف به الآخرون الحدث. سيستعملون ألفاظاً كثيرة. كبيرة. ورنّانة. سيكون ذلك كلّه بلا معنى، لأنّ النتيجة واحدة: الموت.

سبق لي أن عشت تجارب مع الموت. الموت الأوّل الذي اختبرتُه كان لقنفذٍ صغير التقطتُه بين حشائش الحديقة في المنزل. لم أر قنفذاً حقيقيّاً من قبل. رأيت صوره وحسب. وعندما عدت به إلى المنزل شجّعتني الوالدة على الاحتفاظ به. عاش لديّ شهرين تقريباً. ثمّ مات.

مات غرقاً. ألقيتُ به في سطل ماء.. لكنّه طفا..

لا أدري من أين جاءتني تلك الفكرة الجهنّمية..

ربطتُ به قطعةً ثقيلةً من المعدن، ثمّ أعدته إلى السطل. رأيته يخرج رأسه بصعوبة، مادّاً أنفه الصغير إلى الهواء، لكنّ قطعة الحديد لا تمهله أكثر من ثانيتين أو أكثر قليلاً، لتشدّه إلى القاع مرّةً أخرى. حركات مجنونة. رأيته يدور في الماء. رأيت فقاعات هواء تخرج. لم أسمع صوتاً. أعتقد أنّ القنافذ خرساء...

استغرق الأمر دقائق فقط. القنفذ كان يخوض معركةً ضدّ الموت. وأنا بدوري كنت أخوض معركة، ولكن مع ذاتي. تحرّك شيءٌ في داخلي يدعوني إلى الاستجابة لاستغاثات هذا الكائن المهدّد بالموت. يصرخ بي:

ـ هذا كائن يموت أيّها الأبله.. بإمكانك أن تنقذه...

كان بوسعي في الحقيقة أن أتدخّل لإنقاذه لولا كلمة (أبله) تلك. الكلمة التي أكرهها كما لا أكره كلمةً أخرى في العالم. (مجنون) أهون بكثير، لأنّها لا تعني سوى تمزيق الثياب، والابتسام دون سبب، والتفوّه بعبارات غريبة. (أبله) كلمة مختلفة تماماً. لم أسمعها هذه المرّة من الوالد، ولا من باسل. أسمعها منّي أنا. أشتم نفسي بها. يا للشيطان!!.. الوالد وباسل لا يعلمان أنّني لست أبله، لذلك يستخدمانها أحياناً. ماذا عنّي أنا إذاً؟.. لم أنادي نفسي بهذه الكلمة؟.. أنا لستُ كذلك. لم أنجح أبداً في أن أقنع الوالد وباسلاً بأنّني لست أبله. لكنّ الأمر أمام نفسي مختلف..

نفسى التي تناديني بالأبله تدعوني إلى إنقاذ هذا القنفذ. لكنّنى لن أستجيب لها. سأنتصر عليها. سأفرض إرادتي. سيكون لي قرارٌ هنا. أفعل ذلك للمرّة الأولى في حياتي. الثمن هنا روحٌ ستفيض. كائنٌ سيخرج من قائمة الأحياء على هذا الكوكب. لا بأس. سمعت الوالد مرّةً يقول لباسل:

ـ إنّ الانتصارات العظيمة مكلفةٌ دائماً.

فرضيّة سأختبر الآن صحّتها.

معركةٌ بيني وبين من يصفني بالأبله في داخلي. لا بدّ من منتصر. إمّا أن أضعف أمامه وأمدّ يدي لأنتشل القنفذ. وإمّا أن أقف مبتسماً، متماسكاً، كأيّ قائد يرى بعض جنوده يموتون، لكنّه لا يتراجع، لأنّه يعلم أنّ موتهم ثمنٌ لإحساس جميل سيعيشه فيما بعد عندما يثبت للعالم أنّه كان محقّاً. وذكيّاً. وشجاعاً. وعظيماً...

مع آخر رعشةٍ مجنونةٍ في جسد القنفذ قفزت وأنا أصرخ، وأصفّق بيدي:

ـ لستُ أبله.. لستُ أبله.. مات.. مات..

كان هذا آخر القنافذ التي تسبّبتُ بموتها.. لكنَّ هنالك أعداداً هائلة من النمل تلت ذلك. ومن العناكب أيضاً. عدّة عصافير. قطّة واحدة..

ودائماً كان هذا الصوت يناديني:

ـ هذا كائن يموت أيّها الأبله.. بإمكانك أن تنقذه...

ودائماً كنتُ أُخرسه..

***

قبل أن أغادر سيرة القنفذ لابدّ أن أعترف بأنّني لست واثقاً الآن من أنّ كلّ تلك الأفكار خطرت لي فعلاً في موقفي مع القنفذ. كنتُ صغيراً آنذاك. في العاشرة تقريباً. ربّما كنت أعيش الحالة فقط. لم أكن أعيها كما عبّرتُ عنها الآن بالضبط. لا يهمّ. كلّ ذلك أصبح ماضياً لا قيمة له. المسألة الآن تتعلّق بهذا الراهن البشع الذي يجب أن يمرّ بأيّ ثمن.

الوالد الآن ميت. يا للرعب!!..

أفكّر في السوريين. سوريّي الشارع. لا أخاف عليهم، ولا منهم. لكنّه الفضول هو الذي يدفعني إلى أن أعرف ردّات فعلهم..!!

ربّما كان هذا هو الحدث الأكثر إثارةً في تاريخ سوريا..

هنالك مشكلة سيعانون منها..

رئيس الثلاثين عاماً أصبح ماضياً. كيف سيتقبّلون حقيقة أنّ عليهم أن يحبّوا رئيساً جديداً؟.. كيف سيتكيّفون مع هذا المعطى الجديد.. والمفاجئ.. وغير المألوف بالنسبة لهم؟..

واقعٌ عنوانه: أنا...

***

دخلت الوالدة..

ـ أم ياسر.. أين هي؟.. هل أرسلتَها إلى أيّ مكان؟..

ـ لا.. لم أرسلها..

إجابتي أصابتها بالرعب. قدّرتُ ذلك من ملامح وجهها التي تغيّرت فجأةً، ومن نبرة صوتها وهي تصرخ:

ـ كيف لم ترسلها؟.. أين ذهبت؟.. لا أثر لها..

أطلّ أحد عناصر الحرس من الباب:

ـ لا تقلقي مدام.. عثرنا عليها..

ـ أين؟..

ـ في الحمّام.. كان مغمى عليها..

ـ مساحاتٌ شاسعة من الأرض كانت مغطّاة بكراتٍ من الأشواك..

(3)

أصبح لدينا جثّتان في المنزل. الوالد... وأم ياسر..

الدكتور فيصل يؤكّد أنّها نوبة قلبيّة.

أم ياسر.

رحلتْ في الوقت غير المناسب أبداً. كنتُ أريد أن أحزن من أجلها. أن أحزن فعلاً، لا أن أستقبل الخبر بكلّ هذا البرود.

أم ياسر. لست حزيناً. ليس ذنبي طبعاً. ذنبها هي. لم تحسن اختيار اللحظة الصحيحة للرحيل.

لماذا فعلتْ ذلك؟.. تموت الآن؟.. لديها مشاكل في القلب منذ سنوات. نعم. لكنّها ليست خطيرة. ولم ينصح الأطبّاء بأن تتوقّف عن العمل. هذا إذا كان لديها عملٌ أصلاً. استمرار وجودها في المنزل كان بحكم أنّها

أصبحت جزءاً منه. يمكن القول إنّها أحد أفراد العائلة. بالنسبة لي وللوالدة والوالد على الأقلّ. الوالدة والوالد استقدماها للعمل قبل أن يصبح الوالد رئيساً بسنةٍ تقريباً. كنتُ في الخامسة من عمري. أم ياسر جامعيّة. زوجة شهيد يمتّ إلى الوالدة بصلة قرابة بعيدة. ليس لها أولاد.

في المنزل لم يكن لها دورٌ محدّد. كان يمكن أن تقوم بأعمال التنظيف البسيطة غير المرهقة. أن تعدّ بعض الوجبات الخفيفة والسريعة. أن تساعد الوالدة في بعض الأمور الخاصّة. أن ترتّب لها مواعيدها. أن تعتني بنا كأطفال. أن تشرف على دراستنا.. كانت تؤدّي ذلك كلّه، لكن دون أن يرهقها أحد.. وفي الآونة الأخيرة اقتصر عملها على متابعة أموري. أن تتفقّد أغراضي. أن تتّصل بالحلاّق. أن توجّه الخادمة. وفي أقصى الحالات أن تعدّ لي شيئاً أشربه. كأس ماء. قهوة. شاي. عصير..

أم ياسر إذاً ليست شخصاً طارئاً على العائلة. كانت معنا على الدوام. الكثير من الأسرار كانت شاهدةً عليها. ولم يحدث أبداً أن أقدمت على تصرّفٍ يجعلها موضع شبهة. امرأة تبتسم كثيراً. منظّمة جداً. تعتني بمظهرها. ذكيّة. لكنّها بلا طموح.. أو لعلّها كانت تمتلك طموحاً ما، ثمّ حقّقته في وقتٍ مبكّر، أو ربّما تجاوزت هذا الطموح، عندما أصبحت جزءاً

من أضيق الحلقات المحيطة بالرئيس، تعرف عنه ما لا يعرفه سوى زوجته وأولاده. اكتفت بذلك. لم يعد لديها بعدئذٍ ما يمكن أن تتطلّع إليه.

يراها زوّار المنزل بكثرة. لا سيّما النساء. كانت تعرف جيّداً ما يجب أن تفعله. الكثيرات من صديقات الوالدة حاولن أن يقمن معها علاقاتٍ خاصّةً. كنّ يجلبن لها الهدايا في بعض المناسبات. يمازحنها أحياناً. وكانت تتقبّل ذلك بابتسامتها المعهودة. لكنّ الأمر لم يتجاوز ذلك أبداً. لم تتباسط مع أيّ منهنّ. ظلّت حريصةً على أن تفهمهنّ بأنّها لزوجة الرئيس. فقط.. ولا يهمّها أحد سواها..

***

لكنّها لم تكن ضعيفةً على الدوام. كانت جريئة أحياناً، ومتهوّرة...

بعد أن اشتدّ المرض بالوالد، وأصبح واضحاً بالنسبة إليه أنّ النهاية قريبة، جمعنا في جلسة مصارحة. كانت جلسةً استثنائيّةً، لا لأنّها كانت الأولى من نوعها في تاريخ العائلة، ولكن لأنّ النتائج التي خرجنا منها كانت مصيريّةً وحاسمةً، ومن المؤكد أنّها سترخي بظلالها على مستقبلنا جميعاً.

الوالد عرض الأمر على شكل سلسلةٍ طويلةٍ من الاحتمالات. نوقشت جميعاً، لكنّ الوقت الأطول استغرقه احتمالان اثنان:

ـ أن يموت قبل أن أبلغ سنّ الأربعين، وهو الحدّ الأدنى لسنّ الرئيس كما يقضي بذلك الدستور.

ـ أن يموت بعد ذلك..

لم نشعر بالحرج ونحن نتحدّث في موت الرئيس. يمكن القول إنّني كنت أراه ميتاً بالفعل. جثّة تجلس على كرسيّ وتتكلّم.

تناولنا الاحتمالين في كثيرٍ من البساطة والصراحة والهدوء.

في الحالة الأولى كان المقترح أن يتمّ تعديل الدستور من الآن، لكنّ الوالد رفض ذلك، باعتبار أنّه سيضعه في مأزقٍ كبير. سيصبح مكشوفاً أمام العالم أنّه يعدّني لوراثته، إضافةً إلى أنّه سيثير الشكوك (أو يعزّز الشكوك التي كانت قائمةً بالفعل) حول صحّته، وهو ما يحرص على أن يظلّ محاطاً بأقصى ما يمكن من الكتمان..

اقترحتُ أنا أن يتولّى المنصب شخصٌ نثق به، بحيث يكون دوره صوريّاً، إلى أن أستوفي شرط السنّ، ثمّ يتنازل عن المنصب، لتجري انتخابات جديدة يتمّ بموجبها اختياري..

أم ياسر لم تكن ضمن المجتمعين، لكن سُمِح لها بالدخول والخروج لإحضار القهوة أو الشاي أو تلبية بعض الطلبات..

فاجأت الجميع عندما أنهيتُ كلامي بالصراخ من مكانها عند الباب:

- لا.. أقبّل يديك.. لا تسمع كلامه..

نظر إليها الوالد بغضب، ثمّ طلب إليها ألاّ تدخل ثانية..

طبعاً كان من المتوقّع أن يكون الثمن الذي ستدفعه أم ياسر لهذا التدخّل في أدقّ الأمور وأكثرها حساسيّةً بالنسبة إلى الوالد باهظاً جدّاً. لا أقلّ من أن تحرم من مغادرة القصر شهراً كاملاً، كما حدث ذات مرّة نتيجة خطأٍ أهون من هذا بكثير.. غير أنّ شيئاً من ذلك لم يحدث..!!

المقترح الثالث كان مقترح الوالد نفسه، وهو الذي تمّ الأخذ به.. أن يتمّ تعديل الدستور بعد الوفاة مباشرة..

بقي الاحتمال الآخر.. أن تكون الوفاة بعد بلوغي الأربعين.. وقد تفرّعتْ عنه سلسلةٌ أخرى من الاحتمالات احتجنا لنقاشها إلى جلسةٍ ثانية..

***

في اليوم التالي دخلت أم ياسر مكتبي. اتّجهت نحوي. احتضنتني وهي تبكي:

ـ أخاف عليك أولاد الحرام.. سامحني..

***

أم ياسر ممدّدةٌ على الفراش في غرفتها. وجهها شاحب قليلاً. ملامحها تجمّدت عند لحظة ألمٍ رهيب عاشتها.

اكتفيتُ بهذه النظرة وخرجت. لم يكن لديّ ما أفعله أكثر من ذلك.

في الممرّ كان الدكتور فيصل يقف مع أحد الممرّضين. قطع حديثه وتوجّه نحوي:

ـ ماذا تقترح أن نفعل؟..

ـ متأكّد أنّها نوبة قلبيّة؟..

ـ طبعاً..

ـ تواصلْ إذاً مع المراسم للعمل على دفنها.

ـ طيّب..

ستُدفَن قبل الوالد بالتأكيد. ماتت بعده. وستُدفَن قبله.

***

في الصالة كان التلفزيون يبثّ برنامجاً يختصّ بالأخبار المنوّعة. أحد الأخبار بدا مثيراً. رفعتُ الصوت..

كان الخبر عن هجومٍ تتعرّض له بلدةٌ على الساحل الشرقيّ للولايات المتّحدة من قبل أعدادٍ هائلةٍ من القنافذ. ارتجف جسدي. شعرتُ بجلدي ينكمش فجأة. مصادفة؟..

مساحات شاسعة من الأرض كانت مغطّاةً بكراتٍ من الأشواك.. وكان رجال الشرطة والمزارعون ومصوّرو التلفزيون والصحافة يقفون بأفواهٍ فاغرة يراقبون المشهد..

نظرتُ إلى أسفل قدمي.. خيّل إليّ أنّني محاصرٌ بهذه الكائنات. خيّل إليّ أنّ سلالة القنفذ الذي قتلتُه قبل سنوات أقبلت نحوي تسعى إلى الانتقام..

اللعنة.. ما الذي ذكّرني بذلك القنفذ..!!

اللعنة أيضاً.. موتٌ واحد كان يكفي..

ما الذي جاء بهذه القنافذ الآن؟!!..

أشعر بالعطش.. وللحظةٍ كنتُ سأنادي أم ياسر..

***

ـ يصرّ هذا الكلب على أن يكدّر مزاجنا..

تقول الوالدة، وهي تلهث.. ثمّ تضيف:

ـ مصرّ على القدوم للمشاركة في التشييع..

ـ ليشاركْ..

ـ المشكلة أنّنا لا نستطيع منعه..

ـ طبعاً..

ـ لكن لا شيء يدعو إلى القلق.. هنالك من يرتّب للأمر.. سيكون تحت الأنظار منذ لحظة وصوله إلى حين مغادرته..

ـ كم سيبقى؟..

ـ يتفاوضون معه حول الأمر.. اطمئنّ..

ـ وأم ياسر؟..

نظرت الوالدة إليّ في استغراب. سؤالي كان في غير محلّه. خارج السياق تماماً.. لكنّها استوعبت الموقف سريعاً..

ـ سيتمّ دفنها بعد ساعات..

ـ ألا نخبر أقرباءها؟..

ـ ليس الآن. الوقت ضيّق جداً. سيتفهّمون الأمر عندما يعلمون بالظرف..

جانبٌ آخر يعمّق من إحساسي بالأسف لموتها. الوقت. المرأة تموت. والوقت لا يتّسع لنعمل شيئاً من أجلها..

إحساسٌ بالأسف فقط.. مع أنّه كان يجب أن يكون أكثر من ذلك.. اللعنة على الوقت..

***

الخبر الخاصّ بالقنافذ في التلفزيون كان قد انتهى. هنالك خبرٌ آخر عن إحدى القبائل البدائيّة في إفريقيا. وفاة الملك. وتنصيب ابنه الطفل البالغ من العمر أربعة أشهر فقط..

مصادفةٌ لعينة أخرى..

أشيح بوجهي عن التلفزيون..

***

يطلّ الدكتور فيصل برأسه من الباب. ثمّ يدخل. يبدو شديد الارتباك.

ـ هل حدث شيء؟..

ـ الظاهر.. أنّنا.. نواجه مشكلةً أخرى..

قالها متردّداً. وبصوتٍ متقطّع. خفيض..

ـ سأضحك وأنا أراهم يقرعون الطبول، ويتقدّمون نحوي بسيوفهم المثلومة..

(4)

موتٌ ثالث..

ضابط في قسم الحراسة برتبة عميد وُجِد ميتاً قبل قليل في مكتبه.. نوبة قلبيّة..

مصادفة أيضاً؟..

لست أبله لأصدّق ذلك. في طفولتي كان الوالد وباسل يستخدمان هذه الكلمة (أبله) كثيراً في التعليق على الأخطاء التي أرتكبها.. الأمر لم يعد مهمّاً الآن. مضى على ذلك وقت طويل جدّاً، ولا ضرورة لاستعادته.. لكنّها الأحداث المجنونة التي تقع الآن..

مصادفة؟.. طبعاً لا.. لا يمكن أن يكون الأمر كذلك.

فجأةً وجدت نفسي أفكّر بطريقةٍ مختلفة. كائن غريب لا أعرفه استيقظ تحت جلدي، وأخذ يتنفّس. حقّاً. أنا لم أعد أنا. مؤشّر مهمّ على أنّ الوالدة نجحت في مخطّطها الخاصّ بي. والوالد أيضاً..

بإمكاني القول إنّ الوالد عاد إلى الحياة من خلالي بالفعل. هو. عرفتُه الآن. أنفه هذا الذي يتشمّم الهواء باحثاً عن مصدر تلك الرائحة المريبة التي أخذت تنتشر في الجوّ..

وكما لو أنّني الوالد حقّاً بدأتُ أتساءل (نتساءل معاً ـ أنا وهو): هل من الحكمة في شيء أن أكون كسولاً بليداً كالآخرين، وأفسّر موت هذه المرأة وهذا الضابط (وموت الوالد بطبيعة الحال) على أنّه مجرّد مصادفة؟!!..

عندما يتعلّق الأمر بالرئيس (أعني جثّة الرئيس) فمن الضروريّ استبعاد هذا المنطق. استبعاده كلّيّاً.

رائحةٌ كريهة. يقتضي منّا ذلك أن نكون أكثر ذكاءً، وحذراً..

الطبيب يؤكّد أنّها نوبة قلبيّة. الرجل يعرف عمله جيّداً. طبيبٌ معروف، أنفقنا عليه أموالاً طائلة للتخصّص في أرقى جامعات العالم.

ومع ذلك.. في مثل هذه المواقف لا بدّ من إعادة النظر في كلّ شيء. لا قيمة لكلّ الشهادات التى يحملها. لا قيمة لكلّ هذه الشهرة الواسعة التى يحظى بها.. هنالك رائحةٌ كريهةٌ تجعل كلّ ذلك مجرّد نفاياتٍ لا قيمة لها..

اتّصلتُ بأبو جمال. طلبتُ إليه الحضور فوراً..

أبو جمال رئيس الجمهوريّة المقبل مدّة الثلاثين يوماً التي ستلي إعلان وفاة الوالد. رجلٌ لا نثق به كثيراً، لكنّه ممسوكٌ من رقبته. كالآخرين طبعاً. قد لا يكون مخلصاً بالمعنى المطلق لكلمة الإخلاص. لكنّه عاجزٌ عن فعل شيء، لو راودته نفسه، وفكّر بخلاف ذلك..

***

لم يعترض على اقتراحى لاستدعاء طبيب آخر لفحص جثّتى المرأة والضابط. لم يكن مقتنعاً تماماً. لكنّه أراد أن يسايرني. يفعل هذا كثيراً. جزءٌ أصيلٌ من شخصيّته، فيه ما يدعو إلى الارتياح، وفيه ما يثير الشكّ أيضاً.

قال:

ـ لا ضرر في ذلك. مع أنّني أميل إلى أنّ الأمر يتعلّق بنوباتٍ قلبيّةٍ بالفعل. تعلم أنّ الظرف بالغ الصعوبة والحساسية.. الأعصاب مشدودة.. والجميع يعانون من التوتّر..

ـ أنا نفسي متوتّر. ومع ذلك لم أصب بنوبة قلبيّة.. كما ترى..

لم تعجبني ابتسامته. لكنّني تجاهلتها..

ـ الوضع مختلف. ما نعيشه، أنا وأنت والمقرّبون، ليس توتّراً بالضبط. يمكن أن تسمّيه نوعاً من الترقّب لا أكثر. نحن نعلم جيّداً ماذا نفعل.. هل لديك شكّ في أنّنا سنتجاوز الأزمة بنجاح؟.. الآخرون بعيدون عن الأجواء تماماً. يجهلون كم هي مضبوطةٌ حساباتنا. لذلك من الطبيعيّ أن يشعروا بالخوف قليلاً.. أو كثيراً..

ثمّ تابع:

ـ من المؤكّد أنّ إحساساتهم ستتغيّر سريعاً. ستتغيّر عندما يرون كيف ستسير الأحداث بسلاسة. هذه صنعتنا. نحن لا نلعب..

بدا لي كلامه منطقيّاً ومقنعاً.. لكنّ الأمر ظلّ مزعجاً بالنسبة لي.. حسناً.. أم ياسر امرأةٌ بسيطة في النهاية، ومن الوارد ألاّ تتمكّن من ضبط انفعالاتها.. لكن ماذا عن ضابطٍ برتبة عميد؟.. عميد.. يفترض به أن يكون مستعدّاً لمواجهة ظروفٍ شديدة الصعوبة.. هل يعني ذلك أنّنا نعاني من مشكلةٍ في اختيار الرجال الذين يحيطون بنا؟..

أسئلة أخرى كثيرة. لكنّها لن تجدي نفعاً.. ينبغي أن أكفّ عن هذا كلّه.. الطبيب الجديد كشف على الجثّتين.. شخّص الحالة على أنّها نوبة قلبيّة بالفعل..!!

***

غادر نائب الرئيس (أو الرئيس المؤقّت المقبل) المنزل بعد أن جرى التأكّد من سلامة الموقف. لم يدر بيننا حديثٌ حول أيّ موضوعٍ آخر. أظنّ أنّه كلّم الوالدة. وأظنّ أنّهما تبادلا الرأي حول قضيّة رفعت. ربّما تحدّثا عنّي أيضاً...

***

الساعة الآن في حدود الخامسة مساءً. الإعلان عن وفاة الوالد لن يكون اليوم حتماً. لقد تمّ الاتّفاق على تأجيل الأمر إلى الغد. ووُضِع لذلك موعدان: الثانية بعد الظهر. أو السابعة مساءً. يتوقّف ذلك على عوامل مختلفة لمعظمها صلةٌ بالجانب الأمنيّ..

***

أشعر بالإرهاق. ربّما كنت في حاجةٍ إلى قليلٍ من النوم. لديّ غرامٌ قديمٌ بالنوم. أثناء دراستي كنت أفوّت الكثير من المحاضرات الصباحيّة

بسبب النوم. لكن بعد وفاة باسل، واختياري لأستكمل حياته عنه اضطررتُ إلى أن أغيّر معظم عاداتي، وصار عليّ أن أستيقظ في السابعة صباحاً كحدّ أقصى. كان الوالد حازماً في هذا الأمر..

الآن توفّي الوالد. وسأصبح رئيساً بعد شهرٍ تقريباً. أتمنّى أن يتيح لي المنصب الجديد العودة إلى بعض تلك العادات.

أحتاج إلى ساعةٍ واحدةٍ من النوم على الأقلّ. أظنّ أنّها تكفي. سأحاول خلالها ألاّ أفكّر في شيء. وإذا اضطررت فسأوجّه أفكاري كلّها بعيداً عن هذا الذي يحدث. سأحاول أن أحلم.

قد أعود إلى زمنٍ آخر بعيدٍ جدّاً. حيث البشر ما زالوا يسكنون الكهوف. سأخرج إلى الغابة برفقة مجموعةٍ من النساء البدائيّات العاريات. عشرون امرأة. مئة امرأة. ألف امرأة. أنتزعهنّ من أحضان أزواجهنّ ذوي المخالب الطويلة، والشفاه الغليظة. أصطحبهنّ إلى بحرٍ ما. أمدّدهنّ هناك. وأطوف عليهنّ واحدةً واحدةً. ثمّ أتركهنّ فاغراتٍ أفواههنّ من الذهول.. والصدمة..

لا بأس بعد ذلك في حربٍ أخوضها مع أزواجهنّ وهم يقبلون للدفاع عن شرفهم. سأضحك وأنا أراهم يقرعون الطبول، ويتقدّمون نحوي

بسيوفهم المثلومة، فيما أنا متحصّنٌ داخل عربتي الحديديّة. أنتظر قليلاً. وبرشقةٍ واحدةٍ من المدفع الرشّاش سأنثر أشلاءهم على التلال المجاورة.

نسائي العاريات.

وسأدعوهنّ للرقص على إيقاع أغنيةٍ إسبانيّة، أو هنديّة...

وسأجعل هذا اليوم عيداً وطنيّاً سنويّاً يحتفل به شعبي الجميل.

أحبّ شعبي. وسأحرص على أن يفرح دائماً. لن أحرمه المتعة أبداً..

***

حلمٌ لن يطول كثيراً. لن يستغرق أكثر من ساعةٍ واحدةٍ من النوم.. يعقبها حمّامٌ دافئ..

***

غرفة النوم في جناحٍ آخر من المنزل. يحتاج الوصول إليها عبور حديقةٍ صغيرة. الأشجار في الحديقة قليلةٌ نوعاً ما. الاعتماد فيها كان على المسطّحات العشبيّة، وأحواض الورود. لا أعرف السبب في الحقيقة. هل لذلك علاقة بأيّ ترتيباتٍ أمنيّة، أم لذوق الوالد أو الوالدة..؟

لا يهمّ.. لا نية لديّ في المستقبل لإجراء أيّ تعديل. أنا لست من هواة الحدائق أصلاً. أعتقد أنّ هذا الشكل مناسبٌ تماماً. وكافٍ.

هنالك ثلاث أشجارٍ فقط في الوسط. أشجار توت شامي. كبيرة. ومعمّرة. ألقيت نحوها نظرةً سريعة. ثمّ واصلت طريقي.

توقّفت.

بدا لي كما لو أنّ شيئاً غريباً يستلقي تحت إحداها..

نظرتُ مرّة أخرى..

ثمّة شخصٌ نائم.. ليس نائماً بالضبط.. الأغلب أنّه...... ميت..

ـ مستغرقٌ في موته الآن، كما لو أنّ الأمر لا يعنيه..

(5)

أحد عشر موتاً، بالإضافة إلى الوالد..

حتّى الآن طبعاً.. حيث تشير الساعة إلى العاشرة وخمسٍ وثلاثين دقيقةً مساءً..

والأسباب: نوبات قلبيّة..

أمرٌ مضحك. لا بدّ من الضحك.

الطبيب العائد من أرقى جامعات العالم كان أحد الضحايا. الطبيب نفسه. جاءته النوبة وهو في منتصف الدرج المفضي إلى الطابق الثاني. سقط أرضاً، فأصيب بكسورٍ في الحوض أيضاً.

رأيتهم ينقلون جثّته. لم أتمكّن من مقاومة رغبتي في الضحك ساعتها. تمكّنتُ فقط من ابتلاع الصوت المجلجل الذي كان يمكن أن تنطلق به الضحكة. حوّلتُه ـ فيما يشبه المعجزة ـ إلى شيءٍ أقرب إلى العطاس فقط..

جثّة الطبيب. وجثثٌ أخرى بوضعيّاتٍ مختلفة.. مستلقية على ظهرها. ملتوية. متكوّرة. متشنّجة. مسترخية. صفراء. زرقاء. مسودّة. بأعين مغمضة. بأعين جاحظة. بألسنة متدلّية. بشعور منكوشة...

وخطر لي أن نستغلّ الموقف، ونقيم مسابقةً لاختيار ملك جمال الجثث..

أضحك من القلب.. كما لم يحدث من قبل أبداً..

وطبعاً، لا يمكن الاحتفاظ بكلّ هذه القمامة في البيت. لذلك نُقلت إلى مشفى الشامي القريب، مع ما يعنيه ذلك من إمكانيّة أن تتسرّب الأخبار، وتتضخّم، وتتحوّل إلى إشاعاتٍ قد تهدّد سلامة كلّ الترتيبات التي اتّخذناها.

لكنّها الضرورة تفرض نفسها أحياناً. ما من خيارٍ آخر..

آثار الفوضى والذعر والارتباك في كلّ مكان، وعلى كلّ الوجوه. لا أحد يعرف بالضبط ماذا يجري.

أُصدرت الأوامر بإغلاق المطابخ، وأُخِذت عيّناتٌ من جميع الأطعمة والأشربة التي تحتويها، خشية أن يكون للأمر علاقةٌ بمادّة سامّة دسّها أحدهم. احتمالٌ وارد. نحتاج إلى بعض الوقت للتحقّق من ذلك..

تمّ اعتقال بعض الأشخاص أيضاً. لم يكن ثمّة اتّهامات واضحة. لكنّه إجراء احتياطيّ اتّخذه الأمن الخاصّ.

استُقدم فريقٌ كاملٌ من الأطبّاء من مختلف الاختصاصات من عدّة مشافٍ في المدينة، وتمّ إخضاعنا (نحن العائلة) لفحوصاتٍ طبّيةٍ شاملة، للتأكّد من سلامتنا. لم يعثروا على ما يمكن أن يثير القلق. ومع ذلك تقرّر أن يلازم الفريق المنزل إلى إشعارٍ آخر، على أن يظلّ مستنفراً على مدار الساعة.

الطبيب الذي يرأس الفريق سأل عن سيادة الرئيس، وما إذا كان يجب التأكّد من سلامته هو أيضاً، لكنّ أحداً لم يجبه.

كدت أضحك هنا أيضاً. رجلٌ يريد أن يطمئنّ على سلامة جثّة!!.. يخشى عليها من نوبةٍ قلبيّةٍ مفاجئة!!.. لم يُعِد السؤال بالطبع، فقد فهم أنّ الأمر لا يعنيه.

إجراءاتٌ غير مسبوقة. عيون الجميع مفتوحة. والآذان. والأفواه. والعقول.

***

ومع ذلك.. فما زال ثمّة موت..

لم يتوقّف الموت..

عند الساعة الحادية عشرة كان لدينا ثلاث جثث أخرى..

***

الوالدة كانت مذهولةً. المرأة التي كانت قبل ساعات في كامل قوّتها وتماسكها وثقتها بنفسها بدت الآن منهارةً مذعورة. كانت مستنزفة الطاقة تماماً. جلست على الأريكة، وقد ألقت برأسها إلى الوراء، وأغمضت عينيها. كانت تحاول اختلاس لحظاتٍ من النوم، لكنّ الواضح أنّها لم تكن تستطيع. الماء والشراب ممنوعان حتّى الآن باستثناء علب المياه المعدنيّة المختومة.

أشعر بالجوع. طلبتُ من الضابط المرابط على باب الصالة ـ حسب الأوامر الجديدة ـ أن يفعل شيئاً لإحضار بعض الطعام. هزّ رأسه، ثمّ أومأ لأحد العناصر خارج الصالة. همس في أذنه بكلماتٍ ما، ثمّ عاد إلى وقفته.

صمْت. لا أحد يتكلّم أبداً. بالنسبة لي لم أكن أمتلك شيئاً مهمّاً يستحقّ أن يقال. كلّ ما أفكّر فيه كان من نوع السخافات التي لا قيمة لها. أفكّر الآن في حوض سباحةٍ كبير. لن أملأه بالماء، بل بالزيت، وستكون تحته

آلاف المواقد.. زيت يغلي.. بخار يتصاعد.. ثمّ أرمي بالسمكة فيه، وأنتظر ريثما تنضج. وبإشارةٍ من يدي سيلقي أحد الحرّاس بنفسه في الحوض ليأتي بها. وبالمصادفة المحضة سيكون شبيهاً بباسل.

سمكة لذيذة. وسأرسل الحارس بعدئذٍ للعلاج على نفقتي الخاصّة في بيروت..

لستُ شرّيراً أبداً. أفكارٌ من هذا النوع لا تراودني عادةً. لكنّ الجوع لا يرحم. لا أتحمّل أن تكون معدتي فارغة. الصداع أمره هيّن. أتحدّث عن تلك الاظافر التي تعبث في معدتي من الداخل. عن الصرير الذي تُحْدثه، وهي تخدش جدرانها. أتحدّث عن أعصابي التي تنكمش على نفسها. شيءٌ ما يشدّها. ثمّ ينقر عليها. يجعل اهتزازاتها سريعةً ومؤلمة.

لا يعني هذا أبداً أنّني شره. واقع الأمر أنّني لا أحبّ الطعام. ولا أجد لذّةً فيه. أتناوله مضطرّاً في العادة، لأسكت تلك الأصوات فقط.

أتناول طعامي بالقدر الذي يتيح لي أن أفكّر فقط..

الآن تصبح حاجتى إلى الصمت ماسّةً جدّاً. أريد أن آكل. أريد أن أفكّر. لحظاتٌ مرعبة. بناءٌ عمره ثلاثة عقود بناه لي الوالد بالعرق والدم مهدّدٌ الآن بالانهيار. وما يجعل الخطر حقيقيّاً وجدّيّاً أنّ الأسباب تافهة.

مضحكة. نوبات قلبيّة تفتك بمهندسي البناء وحرّاسه والعاملين على صيانته.. أموات.. جثث.. يحدث هذا في الوقت الصعب.

وصرير الجوع في معدتي يشوّش عليّ...

مرّةً أخرى أسأل الضابط عن الطعام، فيجيب بأنّه سيتصرّف..

ـ سيحضرون الطعام حالاً..

***

تنهض الوالدة عن الأريكة. خطواتها مرتبكة. تمسك بسمّاعة الهاتف، وتسأل عن نتائج التحقيقات..

تقول لي:

ـ يؤكّدون أنّها نوبات قلبيّة.. ما من دليل إطلاقاً على أنّ الأمر مدبّر..

قالتها بصوت ينمّ عن شعورٍ غير مستقرٍّ بالارتياح. أظنّها كانت تخدع نفسها، وتحاول خداعي أيضاً.

ـ أخشى أنّنا نتعامل مع مجموعةٍ من الجهلة..

ـ يا إلهي!.. لماذا تصرّ على أن تعيدني مرّةً أخرى إلى الجحيم؟!!.. قلْ شيئاً آخر..

ـ كيف أقول شيئاً آخر؟.. ألا ترين ما يجري؟..

امرأة بلهاء...

***

الهيكل العظميّ للسمكة. والحارس المقليّ. والذبابة التي تحوم فوق رأسي. والمذيعة التي تلتقي بالطلاّب وهم خارجون من المراكز الامتحانيّة. والقنفذ الذي يستيقظ من موته فجأةً. والمدن التي يغسلها مطرٌ أحمر لزج. وهاجر التركيّة التي انتهى بها المطاف من زوجة محتملة لرئيس جمهوريّة محتمل إلى بائعة بوظة في أحد محلاّت اسطنبول. ونساء أفلام البورنو وهنّ يشهقن. نساء البحيرة البدائيّات بأثدائهنّ الصلبة. والعادة السرّيّة. وزعماء العالم يتحلّقون حول الضريح يرتدون أقنعةً حزينة. الأعلام الوطنيّة. وصور القائد الخالد. الموسيقى الجنائزيّة..

الجثث كثيرة. لدينا فائضٌ كبيرٌ منها اليوم. لكنّ الذنب كلّه يتحمّله الوالد. مستغرقٌ في موته الآن كما لو أنّ الأمر لا يعنيه.

رسم كلّ شيء، وخطّط لكلّ شيء. ووزّع الأدوار على الجميع. وعقد صفقاتٍ مع الداخل والخارج. وضع تفاصيل عشرِ سنواتٍ مقبلة...

لكنّه لم يقل لنا ماذا يمكن أن نفعل فيما لو اجتاح القصر وباء النوبات القلبيّة المفاجئة.

خيال القائد لم يكن واسعاً بما فيه الكفاية. كان عليه أن يحتاط لمثل هذا الحدث.

أن يتسبّب وباءٌ غامضٌ بموت عشرات الأشخاص بعد موته هو بساعات، بحيث لا يعود أمامنا متّسعٌ من الوقت للتفكير في جثّته، أو حتّى البكاء عليها. سلسلة الاحتمالات الطويلة التي وضعها اتّضح الآن أنّها ناقصة.. ثمّة حلقة مفقودة.. ولعلّها الحلقة الأهمّ..

***

لا أستبعد شيئاً..

***

آخر الإحصاءات تشير إلى اثنتين وثلاثين ضحيّة..

***

أحدهم وراء هذا كلّه حتماً.

هنالك من يجد فيها يحدث تسليةً له. لعلّ منظر عيني الوالدة وهما جاحظتان يثير في نفسه الضحك. يعاود الضرب مسقطاً المزيد من الضحايا. ومع كلّ ضربةٍ تغادر العينان محجريهما مسافةً أخرى إلى الأمام.. فيضحك أكثر. ثمّ يضرب أكثر. ويضحك. ويضرب. ويضحك. ويضرب...

عينا الوالدة تغادران وجهها. أراهما تتدلّيان ككرتين من المطّاط..

أنا نفسي أريد أن أضحك..

***

تضع الوالدة يدها على صدرها. زبدٌ يخرج من أنفها.. ثمّة ما يدلّ على أنّها ليست بخير.

ـ لا أبحث عن ناجٍ من المجزرة طبعاً..

(6)

التلفزيون لا يبثّ شيئاً. تجمّدت الصورة عند وجهٍ لشابّ في الثلاثينات من عمره، أشعث الشعر. ربّما كانت لقطةً من فيلمٍ سينمائيّ، أو جزءاً من خبرٍ عن حربٍ ما في أحد أرجاء هذا الكوكب اللعين.

أغادر الصالة. أفتح الغرف واحدةً واحدةً. أطلّ على الحديقة. أصعد إلى الطابق الثاني.. الجثث في كلّ مكان.. ما من أحياءٍ أبداً.. لكلّ جثّةٍ رائحةٌ مختلفة..

الوالد منزعج جدّاً. لم تكن ملامح وجهه هكذا في ساعات موته الأولى. كان مرتاحاً مطمئنّاً آنذاك. أمّا الآن فهو يكزّ على أسنانه. لعلّه الزحار القديم الذي عانى منه في شبابه عاوده ثانيةً.

لكلّ جثّة رائحةٌ خاصّة. رائحة الوالد تحديداً كانت مميّزةً جدّاً. كانت تنبعث منه على شكل بخارٍ رقيقٍ أزرق. يتصاعد على مهل. ثمّ ينعقد على السقف قطراتٍ لزجة..

في الآونة الأخيرة (وهو يحتضر) كان يرفض كلّ أنواع الإضاءة. كان يقول إنّ الضوء يحرقه. محاولاتٌ مضنية استعنّا فيها بأطبّاء، ومهندسين، وفنّانين، وعلماء في الفيزياء والكيمياء، وخبراء من التلفزيون. جرّبنا مختلف ألوان الضوء، ودرجاته. وفي النهاية تقبّل نوعاً من الضوء الأزرق الخافت.

كما لو أنّ جسده ظلّ يمتصّ ذلك الضوء طيلة أيّام الاحتضار الماضية، إلى أن تشبّع به تماماً. والآن يُرجعه على شكل رائحةٍ زرقاء..

لا فائدة..

أتركُ جثّته.. أترك الجثث كلّها..

وأتّجه إلى سطح المنزل..

***

لا أبحث عن ناجٍ من المجزرة طبعاً.

لا يشغلني الأمر. وإن كنتُ واثقاً من أنّ الوباء قضى على الجميع..

الإطلالة هنا في هذه النقطة التي يحتلّها المنزل من قاسيون تسمح برؤيةٍ أوسع وأشمل للمدينة في الأسفل. الشمس لم تشرق بعد. لكنّ الضوء كان كافياً للتعرّف على أشخاصٍ هنا أو هناك. بإمكاني أن أرى بعض السيّارات تتحرّك أيضاً..

لا يعلم هؤلاء الذين في الأسفل ما يجري هنا في الأعلى..

لكنّ حدثاً بهذا الحجم لا يمكن التكتّم عليه بالطبع.. لا يتعلّق الأمر بلصّ سطا على جيب رئيس الجمهوريّة، وسرق بطاقته الشخصيّة. لدينا هنا قصرٌ جمهوريّ أطاحت به نوبةٌ قلبيّةٌ مفاجئة.

لن يطول الوقت حتى تُقرع أجراس الفضيحة..

الأسفل لم يستيقظ تماماً. ما زال في فراشه. يتمطّى. يفكّر في اليوم الطويل المملّ الذي ينتظره. الطريق الذي سيقطعه إلى العمل. الوجوه التي سيمرّ بها. النكات السخيفة التي سيسمعها. موجز الأخبار الذي يعيد المذيع تلاوته منذ ثلاثين عاماً دون أن يفكّر بتعديله قليلاً..

لا يعلم الأسفل حتّى الآن شيئاً عن الأعلى هنا. الأعلى المصاب في قلبه..

***

والآن..

ريثما يُقرع الجرس، يمكن أن أعود إلى غرفتي.. لأغسل وجهي..
ويديّ.. وأنظّف أسناني..

أسناني خصوصاً

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

......

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

...

صدر للكاتب:

. (43<30 . قصص) . دار التكوين، دمشق، 2009.

. (استحواذ . كيمياء نصوص وسرد) . دار الحوار، اللاذقية، 2011.

. (الـ O سلبي الأحمر والمشعّ . في السيرة وهوامشها) . دار الغاوون، بيروت، 2012.

القنفذ

سيرة حياة طويلة جداً

هذه الجثث ليست تماثيل محطّمةً يمكن ترميمها

هذه الأعناق المتدلّية ليست أغصاناً مقصوفةً يمكن أن تنمو من جديد

هذا الجلود المشقوقة ليست قماشاً يمكن حياكته

هذا الموت ليس قيلولةً سنخرج منها

هذه الصرخات ليست موسيقى تصويريّة

والقتلة ليسوا ممثّلين

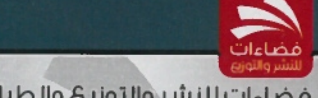
ونحن لسنا متفرّجين..

كلّ ما نراه حقيقيّ.. وواقعيّ.. وأكيد..

وحدها بركة الدم تحت أقدامنا ليست كذلك

هي مرآة

وعلينا أن ننظر فيها لنرى وجوهنا كما يمكن أن يرسمها أطفالنا...



فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة

عمان – الأردن – تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+

Fadaat For Publishing & Distribution

Amman - Jordan . dar_fadaat@yahoo.com

